

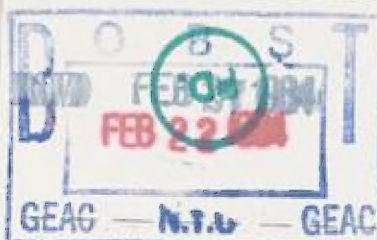
AL-ASHTAR

MA'SAT FILASTIN.



3 1142 01011 1485

DATE DUE



BRO
DART

Boston, N.Y. • Minneapolis, Pa.
San Angeles, Calif. • Brampton, Ontario
North Vancouver, British Columbia

N. Y. U. LIBRARIES

الدكتور
صالح الأشته
أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر

« محاضرة عامة القيت في
مدرج جامعة دمشق في العاشر
من كانون الأول ١٩٦٠ »

١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م

مطبعة جامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

Dr. Ashtar, Ṣālīḥ

(Maṣāṭ Filastīn wa-atharuhā fī al-
al-Shi'r al-mu'āṣir. /

الدكتور

صالح الأشته

أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

« محاضرة عامة القيت في

مدرج جامعة دمشق في العاشر

من كانون الأول ١٩٦٠ »

١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م

مطبعة جامعة دمشق

مكتبة
تشيكاغو
في جامعة كولومبيا

~~PJ
7814
S48
M3
C.1~~

PJ
8190
.P3
A84
1961
C.1

تمهيد

هذه صفحات قليلة ، أقدم فيها دراسة موجزة مركزة ، تلقي
أضواء نافعة على مأساتنا القومية العظمى في فلسطين ، وتحاول أن
تكشف عن أثر المأساة في الشعر العربي المعاصر .
و كنت أصدرت قبل شهرين كتاباً « في شعر النكبة » درست فيه
هذا الشعر وخصائصه ، وجمعت فيه منتخبات من « ديوان النكبة »
لعدد ضخم من الشعراء المعاصرين ، وقد أعانني هذا الكتاب على

تكشف بحبي الحالي ، وزاد نظرتي إلى شعر المأساة تبلوراً وإحاطة ،
ومن هنا تجيء محاضرة اليوم تكملة لكتائي ، وكل رجائي أن يكون
الطريق الذي شققته في دراسة هذا الجانب البكر من أدبنا المعاصر ،
واضح المعالم ، يثير عزيمة الباحثين لمواصلة السير فيه ، وتعميق الخطوط ،
فالنكبة الفلسطينية - دون ريب - هي العامل الرئيسي الفعال في الأدب
العربي المعاصر : شعره ونثره ، وكل بحث في أدب المأساة جهدهم مذكور
ومحمود من جهتين : فهو يسهم في غنى دراستنا لأدبنا المعاصر من جهة ،
وهو يعين على يقظة ضميرنا القومي من جهة أخرى .

وبعد :

فقد لقي بحشي في شعر النكبة من الترحيب والتشجيع ما زاد
إيماني بخطر الموضوع وقيمه ، فإذا استطاعت هذه الصفحات - مع
الكتاب الذي تقدمها - أن تنحت لبنة صغيرة متواضعة في بناء يقظتنا
القومية المعاصرة كان ذلك خير كسب لي ، وكنت به موفقاً وسعيداً .

سليح الأشتر

مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر

أيها السادة

يجوز لي أن أعود دائماً إلى ذلك الفصل الممتع من مقدمة ابن خلدون^(١) الذي يقرر فيه أن للدولة ، كما للأشخاص ، أعماراً طبيعية ، ويرى أن عمر الدولة لا يبعدو في الغالب ثلاثة أجيال من الناس : أما الجيل الأول فهم مؤسسو الدولة ، وكلهم عصية لها ، فحدثهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون ! وأما الجيل الثاني فهم يميلون إلى الترف والكسل ، فتتكسر فيهم سيطرة العصية بعض الشيء ، حتى إذا جاء الجيل الثالث بلغ الترف فيهم غاية واستكانوا لغضارة العيش ولينه وأصبحوا عيالاً على الدولة وسقطت العصية بالجملة فيهم ، فإذا هم غير قادرين على حماية الدولة من طمع الطامعين ، فيسلمونها بأيديهم إلى الانقراض !

هذه خلاصة ذلك الفصل المشهور من المقدمة وهو يحوي نظرة اجتماعية استقصرها ابن خلدون من دراسته تاريخ الدول التي قادت الأمة العربية وحكمتها خلال القرون إلى عصره ! ولقد تدبّرت نظرة ابن خلدون فראيت أنها تظل

(١) - المقدمة : الفصل الرابع عشر

إلى اليوم صادقة مصيبة في خطوطها العريضة وهي أن من نواميس الحياة ألا
تستطيع الدولة التي تبلغ ذروة المجد والحضارة الحفاظ الدائم على أنجادها ، فلا
بد من أن تقسرب إليها عوامل الضعف والانحلال والتعفن ، لتؤخرها عن
الذروة ، وتردّها ، هي والامة التي تسير في ركابها ، إلى السفح ، حيث يتوالى
انحدارها شيئاً فشيئاً . . . وعلى السفح المنحدرتنوّى ليل مظلمات من النكبات
والأحداث ، تُلّف في أحشائها أشباحاً هزيلة ، تتدافع نحو مصيرها الرهيب في
خنوع واستسلام ! ومن أعماق الظلمة تنطلق أصوات مبهوكة ، تحاول عبثاً
أن تزعج النائمين لتفتح أعينهم على الخطر وتوقف فيهم العصبية لمجدهم الآفل وتغريهم
بالصعود إلى الذروة من جديد !

تلك هي صرخة الأدب . . صرخة متمرّدة على حياة السفح والنوم
والاستسلام ، تهيب بالامة والمنحدرة ، أن تدرك ذاتها وتعي مصيرها ،
لتعاود الصعود إلى الذروة .

وكذلك - أيها السادة - عرفت أمتنا العربية ، أمتنا التي ذاقَت ذُل
كثيرة فيها خلال القرون حياة المجد في الذروة ، عرفت فترات مظلمة من
حياة السفوح ، وتاريخ تلك الفترات السود مجبول بالمآسي والأهوال والدموع ،
وأدبها هو أدب النكبات ، وهو جانب ضخم من جوانب أدبنا العربي في القديم
والحديث ، ولا أدل على ضخامته من أن نذكر بما قال الشعراء العرب في
نكبتين اثنتين من نكباتنا الكثيرة خلال التاريخ وهما : مأساة الأندلس
ومأساة فلسطين .

فأما مأساتنا في الأندلس فقد أغنت الأدب العربي بما قاله الشعراء في البكاء
على المجد الضائع ورثاء الممالك المنصوبة ، وهو شعر كثير يفصل أسباب النكبة
الأندلسية ، وبحكي قصة العرب في إسبانيا وما كان جزاؤهم فيها بعد أن

أعدوا تربتها خير ما يقدمه العقل النثير واليد الصانع إلى الأرض ! وفي موسوعة مؤرخ الأندلس المقرئ^(١) نجد غاذج كثيرة لهذا الشعر الذي يسح بالآهات والعبوات والدموع ويعتصر منها أبلغ الدروس والعظات !

وأما مأسائنا في فلسطين فقد منحت الأدب العربي ديواناً دموياً ضخماً ، كتبت الحروب الصليبية صفحاته الأولى ، وهو لا يزال إلى اليوم في تضخم مستمر ، وكلما تضخم الديوان ازدادت ملحمة الدم العربية في فلسطين غنى واتساعاً ، وموضوع حديثنا الليلة هو مأسائنا هذه في فلسطين الشهيدة وأثرها في الشعر العربي المعاصر

* * *

أيها السادة

يُحْيَلُ لي أحياناً أن الله — جلّ شأنه — عندما شاء لهذه البقعة المطهرة من أرض البشر أن تثبت النبوات ، وأن تصدح في أجوائها أصدااء الرسالات السماوية السامية ، شاء أن يجعل أمتنا العربية مالكة لهذه الأرض المقدسة وقائمة عليها ، حامية لها ، وكتب — جلّ شأنه — على أمتنا أن تدفع ثمن ذلك الامتياز العظيم بدلاً غالباً من "حرّ" دمها ، تسقي به تربة فلسطين الطاهرة ، من دمها المظلوم ، يريقه في كل مرة ذؤبان معتدون "يقبلون على فلسطين من أقاصي الأرض ، يسوقهم إليها نعصب أحرق أروع ، وتعريهم بها مظالمع وشهوات ! وإن لم يكن ذلك ، فلم تجتمع المعتدون الصليبيون في أواخر القرن الخامس الهجري من كل طرف ، وغزوا أرضنا ، قدّموا الثغور والدروب ، وأحرقوا المساجد وهدموا الدور ، وأقاموا المجازر وأجروا أنهار الدم ؟ ولماذا ارتكبوا في القدس بعد استيلائهم عليها ما يشعرك من خجل ضمير التاريخ ! !

(١) — نفح الطيب من غصن الأندلس للطبيب المقرئ

يقول المؤرخ الأوربي ميشو^(١) : « ارتكب الصليبيون في فتح القدس
أولاً من التعصب الأعمى لم يسبق له من قبل نظير ! »

ويقول المؤرخ العربي ابن الأثير^(٢) : « وورد المستنقرون من الشام
(بعد فاجعة القدس) في رمضان إلى بغداد ، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى
العيون وأوجع القلوب ، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا
وذكروا مآدم المسلمين بذلك (البلد) الشريف المعظم من قتل الرجال وسي
الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، فشدت مآصاهم - يعني أهل بغداد من
حزبهم على إخوانهم في القدس - أفطروا ... »

لقد أراق الصليبيون الدم العربي المظلوم في فلسطين ، فهزت نكبتها ضمير
العالم الإسلامي ، وتقطعت قلوب البغداديين وسالت دموعهم ، وارتعش
وجدان الشعر العربي ، وانطلقت أولى قصائد النكبة في ملحمة الدم في فلسطين
من فم الشاعر أبي المظفر الأبيوردي^(٣) :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم	فلم يبق منا عُرْضة للمُراجم
وشرب سلاح المرء دمعاً يفيضه	إذا الحرب شُبَّتْ نارُها بالصوارم
فإيهاباً بني الإسلام ! إن وراءكم	وقائلاً يلحقن الذرى بالمنام
أتهويجة في ظل أمنٍ وغبطة	وعيش كنوار الخيلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هَبَواتٍ أيقظت كلَّ قائم
وإخوانكم بالشام يُضحى مقلبهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنت	تجرون ذيل الحفص فعل المسالم

(١) - مجلة العالم الإسلامي ببغداد : السنة الأولى - الجزء ٥ و ٦ من ٢٧٢

(٢) - الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٩٢ :

(٣) - أوردها ابن الأثير في الكامل ولا نجد لها في الفتاوى المطبوعة من ديوان الأبيوردي.

وكم من دماء قد ابيحت ومن دمي
بحيث السيوف البيض محمرة الطبا
وبين اختلاس الطعن والضرب وقعة
وتلك حروب من يغيب عن غمارها
أتوضي ضنايد الأعاريب بالأذى
ويجتنبون النار خوفاً من الردى
فليتهم إذ لم يذودوا حمية
وان زهدوا في الأجر إذ همي الوغى
لئن أذعنت تلك الحياشيم للبرى

تواري حياة أحسنها بالمعاصم
وسمر العوالي داميات الهازم
تظل لها الولدان شيب القوادم
ليسلم يقرع بعدها سن نادم
ويغضي على ذل كئامة الأعاجم
ولا يحشون العار خربة لازم
عن الدين ضنوا غيرة بالحارم
فهلأ أتوه رغبة في الغنائم
فلا عطسوا إلا بأجدع راغم

وتوالق فائد النكبة بعد صرخة الأيوودي هذه ، وظلّت فلسطين
تقاسي الأهوال ، ويسقي الدم المظلوم تربتها المقدسة ، وحبرت القدس على
على الحنة قرابة تسعين عاماً وهي تنتظر سيف الناصر صلاح الدين ، فلما لاح لها
حليف القائد العظيم فوق بطاح حطين ، وارتدت إلى العرب أرضهم وكرامتهم ،
وألقي بالذوبان المعتدين إلى البحر ، فتطهرت من أرجاسهم أرض النبوات ،
دوت صوت الشعر بالفرحة العظمى ، بلسان الشاعر المصري ابن سناء الملك^(١) :

لست أدري بأي فتح أنشأ
أهنيك إذ تملك شاماً
قد ملكت الجنان قطراً فقطراً
إن دين الإسلام من على الحد
لك مدح على السبوات ينشأ
قصدت تحوك الأعادي فرد الـ

يا منيل الإسلام ما قد تمس
أم نهيك إذ غلكت عدنا
إذ فتحت الشام حصناً فحصناً
ق وأنت الذي على الدين منّا
ومحل فوق الأسنة يبنى
لله ما أمّله عنك وعشا

(١) سادس الحروب الصليبية للدكتور عبد الطيف حمزة : ١٣٣ .

قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحوت الآفاق سهلاً وحزناً
واعتدى الوصف في "علاك حسيراً" أي لفظ يُقال أو أي معنى ؟

ولكن مأساة فلسطين لن تنتهي عند هذا النصر العظيم ، فتربة فلسطين
ستظل مشوقة إلى الدم العربي المظلوم ، والذوبان المعتدون سيظلون من وراء
البحار يتحينون الفرصة للعودة إلى الأرض المقدسة ، فلنطو إذأ هذه الصفحة
القديمة من ديوان النكبة ، ولنفتح صفحة جديدة لمأساة فلسطين في تاريخ
العرب الحديث .

* * *

أيها السادة

لقد أقبل القرن العشرون والامة العربية في سباتها العميق ، وكأنها
استطابت حياة السفوح ، واستسلمت راضية إلى نوم كالموت ، وهي تعلم أن
من وراءها ذوباناً لا ينامون الليل ، تؤرقهم هذه المرة أطباع بالغة الخطر ، فهم
يعلنون بلسان زعيمهم زانكوبيل : " أن فلسطين وطن بلا شعب ! فيجب أن
نعطي لشعب بلا وطن ! " . وهم يزعمون أن فلسطين أرضهم ، كانوا قبل آلاف
السنين فيها ، وهم اليوم موعودون بالعودة اليها ، وغاية مزاحمهم أن يقطعوا من
الكيان الأرضي العربي الموروث قطعة غالبية يقيمون عليها وطناً قومياً لهم !

وكذلك كان وعد بلفور - أيها السادة - للورد اليهودي روتشيلد سنة
١٩١٧ خاتمة جهود مسعورة لذوبان الصهيونية العالمية ، ومنذ صدوره تعلقت
به آمال يهود العالم الهاربين من نقبة الشعوب ، وأصبحوا ينتظرون يوم
الهجرة إلى فلسطين !

وانتهت الحرب الكونية الأولى بنصر الحلفاء وغدرهم بالشريف حسين وثورته واقتسامهم مناطق النفوذ في العالم العربي ، واحتل الجيش الانكليزي فلسطين ، وفي اليوم التالي لدخوله القدس وصلت الى فلسطين اللجنة الصهيونية لدراسة الوضع فيها ، ومن ثم بدأت الآلة الصهيونية تدور : تجمع المال وتشقري الأرض وتقيم عليها المستعمرات لافواج المهاجرين ، وبدأت الخيوط الأولى للمأساة الجديدة تبرز لكل عين ، غير أن العرب لم يكونوا الى ذلك اليوم ليحسوا بالخطر الوهيب إحساساً كافياً ، فهم لا يزالون متفرقين شيعاً وأحزاباً تتناحر وتتعادي ، واليهود يتابعون تحصين المستعمرات ويستعدون للمعركة المقبلة ، وجاءت الحرب الكونية الثانية فأعانهم على إنشاء المصانع الضخمة وتدريب فتيانهم وتسليحهم ، وكانت دعايتهم الهائلة المنظمة تبني لهم سنداً في كل بلد ، من رأي عام يعطف على تشريدهم في الأرض واضطهاد النازية لهم ، فلما انتهت الحرب ثانية بنصر الحلفاء أصبحت لفلسطين الشهيدة قضية معروضة على منظمة الأمم المتحدة ومن ورائها أصابع أميركا والصهيونية ، وأدرك العرب أنهم مقبلون على المأساة ، ولم تستطع دولهم السبع وجامعاتهم العربية أن تمنع إصدار القرار بتقسيم فلسطين ، وتشريد عربها ، ودوي الرصاص من جديد في الأرض المقدسة ليسيل فيها الدم العربي المظلوم ! ودخل جيش الانتقاذ العربي إلى فلسطين بقيادة عزيزة وجند خليط وسلاح مفلول فتوالت عليه الضربات ، وشن اليهود عدواناً وحشياً مقصوداً على دير ياسين فنشروا به الذعر والخوف ، وبهذا السلاح المالحق من الرعب الجماعي وانهار الأعصاب أجلى اليهود العرب عن طبريا وحيفا وبافا وعشرات المدن والقرى ، وتدفق اللاجئين على البلاد العربية المجاورة والضفة الغربية من الأردن ، حتى إذا أقبل اليوم المحدد لانسحاب الجيش الانكليزي من فلسطين ، في الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨ ظهر للعالم أن مجتمع العصابات اليهودية في فلسطين أصبح دولة قائمة ،

وأن المجتمع العربي فيها بدأ يلفظ أنفاسه ويتخول إلى قطعان مذعورة من
الغرياء اللاجئين الهائمين على الدوب !

عند ذلك أعلنت الدول العربية السبع الحرب على إسرائيل ، ونحطت فرق قليلة
من جيوشها حدود فلسطين للقيام بنزعة حربية في الأرض المقدسة ، ومرت
أسبوع وأسبوع والجيوش العربية تقتحم ما أقرّ التقسيم إبقاءه عربياً من
الأرض الشهيدة ! كانت الجيوش العربية متفرقة متخاذلة ، قليلة العدد ، هزيلة
الخبرة والتدريب والتنظيم والسلاح ، وأمامها عدو منظم مدرب قد عبأ جميع
قواه البشرية والمادية والعقلية والسياسية ، وفي يده أحدث الأسلحة وأعضائها ؛
ولهذا كان على الدول العربية أن تقبل الهدنة الأولى لمدة شهر تمكّن اليهود
خلاله من تعزيز قواهم ، والعرب سادرون في خلافاتهم ، فلما عادت الحرب
برز الخلاف في الجبهة العربية للاميان ، وانسحب الجيش الأردني من اللد والرملة ،
وتبعه الجيش العراقي ، وخلا الميدان أمام القوات الاسرائيلية فاحتلت بيسر
عدة مدن ومئات القرى ومساحات واسعة من الأرض العربية ، وعرب
السكان على وجوههم هائمين ، وقد باغتهم العدو في دورهم وخلقوا في أرضهم
كل ما يملكون ، وارتفع عدد اللاجئين في البلاد العربية عشرات الآلاف .

وقبلت الدول العربية قرار مجلس الأمن بالهدنة الثانية ، وتفاقم
الخلاف بين الحكومات العربية ، وانتهى بإعلان حكومة عموم فلسطين في غزة
لتقف أمام أطماع الملك عبد الله ، فردّ الملك بإعلان ضم الضفة الغربية من
الأردن إلى الشرقية ، وفاز بذلك من الغلبة بنصيب الأسد !

ومضت أيام الهدنة الثانية والحكومات العربية ماضية في تناحرها وشقاقها ،
واغتتم اليهود الفرصة فجمعوا قواهم وهاجموا بها الجيش المصري ، وتمكنوا من
محاصرة فرقة كبيرة منه في الفالوجة ! وكذلك شاء ربك أن يكون ، بين
الجند المحاصرين ضابط عربي شجاع ، عبأته غناية الله لدوره حاسم في المأساة ،

وهناك في قلب المعركة والحصار التقى جمال عبد الناصر بتلك الفئة المؤمنة
من الأبطال الأحرار الثائرين الذين جرت دماؤهم المظلومة على تربة فلسطين،
فهاجت في قلوبهم الثورة على الظالمين، ولما عاد المحاصرون إلى القاهرة اندلعت
من قلوبهم شرارة الثورة فأطاحت بالعروش وأذابتها فكانت الصفحة الأولى من
انتقام الشعب العربي لكرامته المهدورة !

أما التنبؤية الحربية في فلسطين فقد انتهت بأن عقدت كل حكومة عربية
الهدنة المنفردة مع إسرائيل ، صاغرة ذليلة ، ثم راحت تنفصل من جريمتها في
المأساة ، وتحمل الأخرى مسئولية النكبة والإنكار والهزيمة ، وتحدّر
شعبها بالتهديد بالجولة الثانية !

ومرّت السنين حتى جاوزت العشر ، مرّت ثقيلة بطيئة الخطأ ، وجيل
المأساة ينتظر الفجر الموعود ، ويتلهف إلى خيال القائد المظفر لجيش العروبة
الموحد ، ويتوقّب انطلاقة الصيحة الرائعة من فمه ليبدأ بالزحف العربي المقدس !

أما السادة

هذه الخطوط العريضة لمأساة فلسطين في عصرنا الحديث عشناها ، أو
عاشها أكثرنا بكل دفقة من دمايته وبكل رجفة من أعصابه ، ولما بسطتها
لأن الشعر العربي المعاصر عاشها أيضاً بكل جزئياتها ، وقد استخلصت في
كتابي (في شعر النكبة^(١)) حكاية المأساة من جذورها إلى اليوم ، من
الشعر المعاصر ، وبذلك يتضح لنا أن ديوان النكبة في تضخم مستمر ، وأن
ملحمة الدم في فلسطين مازالت إلى اليوم بدون نهاية !

سأقف الآن بكم عند هذه الحكاية الشعرية لمأساة فلسطين الحديثة لندرس

(١) - في شعر النكبة - مطبعة جامعة دمشق - ١٩٦٠

ما لهذه المأساة من أثر في الشعر العربي المعاصر ، ولكي أضخم جوانب البحث
سأحاول تكتيفه في نقاط التأثير الخمس التالية :

١ - مأساة فلسطين قدّمت للشعر المعاصر زاداً لا ينقذ

لا ريب في أن مأساة فلسطين هي أعظم تجربة يعاينها الأدب العربي المعاصر ،
فقد عزّت أهوالها ضمائر الشعراء العرب في كل قطر عربي ، وأنطقتهم بشعر
غزير ، وأوحّت إليهم بصور شعرية لانهاية لها ، وكيف تذهبي صور المأساة
مادام هناك مليون من المشرّدين على الدروب ، في كل بلد عربي ، تروي
وجوههم الشاحبة وأجسامهم المعلولة قصة الجريمة العظمى لكل عين ، وتذكر
كل ذي وجدان بعمق المأساة ووحشتها ، ومن هنا لم يكن شعراء فلسطين
وחדهم في مناجاة النكبة ، فالمأساة قومية جامعة ، ويندر أن نجد شاعراً
عربياً في أي قطر من أقطار العروبة لم يسهم في البكاء على البلد العربي الشهيد ،
أو في مواساة المنكوبين ، أو في بث روح الصبر والمقاومة والعزيمة للتضال
من جديد والاستعداد للجولة الثانية ، ولقد رعى الشعراء العرب جميعاً أن وراء
المأساة في فلسطين عدواً مشتركاً تعرف البلاد العربية كلها غدره وويلاته ،
فازدادوا عنفاً في مهاجمته ، وكشفوا عن وجهه القناع ، وفضحوا الصلة التي
تجمع بين الاستعمار والصهيونية ، فما إسرائيل غير تحلب للاستعمار ، يهدد به
أمن العرب ، ليقضي على كل حركة تحررية فيهم ، ويضمن بذلك حماية ما بقي
له من مرفق ومصالح في جوانب من أرض العرب !

غير أن الاستعمار لم يكن وحده السرّ في مأساة فلسطين ، فهناك الغدر
والخيانة والمطامع والانهواء والشهوات التي كانت تعصف في رؤوس عدد
من الملوك والرؤساء ، وقد تصدى شعراء النكبة لهؤلاء ، وفضحوا دورهم
القليل في المأساة ، وكشفوا عن جرائمهم وصبوا عليهم اللعنات ..

والى جانب هذه الصفحات السود من الحياة والحزني تضم المأساة صفحات
رائعة من البطولات والتضحيات ، وبذلك كله قدمت مأساة فلسطين للشعر
العربي المعاصر زاداً لا ينفد ، ووضعت بين يديه مادة للقول غزيرة لانتضُب
مهما امتد عمر المأساة ، واليك ديوان النكبة : فيين ما كان بقوله ابراهيم طوقان
قبل التقسيم بعشر سنين :

أمامك أيها العربي يوم	تشيب لهوله سودُ النواصي
وأنت كما عهدتك لأبائي	بغير مظاهر العبت الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأعدائي	وسار حديثه بين الآفاسي
فلا رحب القصور غداً بياق	لناكنها ولا ضيق الخصاص

وما يقوله أبو سلمى بعد التقسيم بعشر سنين :

يا فلسطين مضت عشرٌ وفي	كل يومٍ يسمع الدهر ندانا
وأنتنا والظى بحرقنا	عرباً : قلباً ووجهاً ولساناً
يا أحباي مضت عشرٌ ولم	تلم التوب المقتدى شفتانا
وشظائنا اللواني وحدث	بين أهلنا ولم يبق سوانا

بين هاتين الصفحتين من ديوان النكبة شعر كثير يفصل أسباب المأساة
ويتتبع أحداثها ويصور أبعادها الواقعية والوجدانية ، وما زالت المأساة إلى
اليوم تقدم للشعر مادة جديدة !

٢ - مأساة فلسطين أغنت العنصر العاطفي في الشعر المعاصر

أثارت مأساة فلسطين بأهوالها وويلاتها وجدان الشعر المعاصر ، فانطلقت
قصائد النكبة مغمسة بالدم والدموع تصور بؤس المنكوبين وشقاءهم
وضياعهم وضلالتهم ، وتقف أمام خيام اللاجئين « لتقص قصة العربي النانه !

لقد انتهى دور اليهودي النائم منذ أصبح له في إسرائيل وطن قومي بحبيبه ،
 وبيت يظله ويؤويه ، وأرض تطعمه من خيراتها وتغنيه ، وهام العربي على
 وجهه ، بلا وطن ولا بيت ولا أرض ، يلوب في الدروب ، حافياً غارياً
 جائعاً ، ينتظر من الشعوب فضلات الإحسان ليسد بها رمقه ، وهو الذي
 خلف في وطنه السليب مئات الملايين من الجثثيات ! حتى إذا أقبل عليه الليل
 أرى إلى تلك الحيمة السوداء التي أصبحت رمزاً كريهاً للنكبة ^(١) ، ففي قلب
 هذه الحيمة ألوان كفرة من البؤس والشقاء ، من جوع وعزي وبرد ، وقمل
 وموت !

إنها خيمة اليهتان ، كما يسميها الشاعر المبدع محمود حسن إسماعيل :
 هنا في خيمة اليهتان والطغيان والزور
 لدى مأوى كالعبد الميت في النسيان محفور

* * *

هنا في كبوة الأقدار بين السيل والويل
 وبين أعواء شيطان طريد الجن مخمل
 يقع للدمود السود مأخوذاً من الهول
 سمعت فصيح نعبان على رثى منسل
 تدفق جسنه المفلوج بين حفاتر السل
 وبين شتاء بستان يدفء الموت مخمل !

ومن هذه الحيمة والشقاء الرابض في جوفها استعار كثير من الشعراء
 المعاصرين مادة شعرية لدواوين كاملة ، حتى أصبح للخيمة في الأدب المعاصر أثر
 بعيد المدى ، ولقد أسهم شعراء العالم العربي في أدب الحيمة إلى جانب شعراء
 فلسطين لأن خيام اللاجئين منورة ونحت كل كوكب في بلاد العرب ،

(١) في شعر النكبة : ٧

كما يقول أبو سلمى ، ومنها يزحف بؤس ضارب يدمى القلب ويبكي العين ويحرك
لسان كل شاعر .

ولقد صور الشعر المعاصر الخاضع النفسي العنيف الذي عاناه العرب في
مختلف أطوار المأساة ، فإذا جئنا إلى شعر النكبة بعد التقسيم والمركة الهائلة
وجذناه يروج بالقلق والخيرة والشك ، وهو بذلك صورة صادقة للنفس العربية
الجرمجة الكبيرة عندما صدمتها الهزيمة ففجرت ثورة غضبها وبأسها وانتهابها ،
وأشعلت براكين حقدها على الجناة ثم استكاثت إلى كتابة حزينة فائقة ، إلى أن
أشرق طور جديد إثر الانتصارات الشعبية في أطراف من العالم العربي ، فتنبه
شعر المأساة روح التطلع والتفاؤل والأمل ، وراح يصور النفس العربية وقد
عادت إليها الثقة وارتدت الإيمان بذاتها إليها ، فانتعشت كالعلاقات من جديد ، تتحدى
كل مغتصب ، وتستعد للنار واستعادة الوطن المغصوب .

والذي يزيد غنى العنصر العاطفي الوجداني في الشعر المعاصر اندفاع تلك
تلك الثورة العارمة من الحنين إلى الأرض السليبية في قلوب شعراء فلسطين ، فهذا
أبو سلمى يحن إلى داره في فلسطين وما خلف فيها من حلو الذكريات :

داري التي أغقت على ربوة	حاملة بالجد والغار
تفتح الزهر على خدعها	فعطرت أيام آذار
والتياسة الخضراء في ظاهها	ناربخ أشواقي وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى	تروي حكاياتي وأخباري

وهذا حسن البحيري يتنسم أنفاس وطنه المغصوب في أريج الزهر :

سألت ذات حنين أختها	والدجى يعقد أبقان الوسن
وصدى التجوى على أفق الربا	يزفير اللهفة في ليل الشجن
أخت ما سر الشذى من رنابق	حير الأدمع في جفن الزمن

فأجابنيها بلحن شاور
ربنا فاهتز له عطف الفن :
يا ابنة الأيك ويا أخت الشجي
أرج الزنبق أنفاس الوطن !

والحق أن شعراء فلسطين غنوا أصدق ألحان المأساة وأعظمها عاطفة لأنهم صدروا فيها عن التجربة التي عاشوها بأنفسهم والمآسي التي رأوها بأعينهم ، غير أننا يجب أن نلاحظ أن غنى العنصر الإنفعالي وطغى بتضخمه على العنصر الفكري في شعر المأساة فبدأ هزبلاً فقيراً ، ذلك أن شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الإيجابي للمأساة القومية الكبرى ، المعنى البناء الذي يجدد الهدف ويرسم الطريق ، كما أنهم لم يُغنوا بتزويد الضمير العربي بالسند الجدلي لحق الأمة العربية في فلسطين وبطلان مزاعم الصهيونية فيها ، ولا تقولوا إن هذه النقطة الأخيرة ليست من وظيفة الشعر ، ذلك أن هناك شاعراً واحداً - فيما أعلم - انتبه إلى هذه الثغرة في شعر المأساة وحاول أن يسدها ، وهو شاعر مهجري ، ولعله استطاع أن ينجو بشعره من طغيان العنصر العاطفي لأنه كان بعيداً عن المأساة في مهاجره ، فتمكن من الموازنة بين العاطفة والفكر في بكائه للمأساة ! يقول إيليا أبو ماضي :

ديارُ السلام وأرضُ هنا	يشقُّ على الكل أن تحزننا
فخطب فلسطين خطب العُلا	وما كان رزء العلاء هيناً
سهرنا له فكانت السيوف	تحزُّ بأكبادنا ههنا
وكيف يزور الكرى أعيناً	ترى حولها للردى أعيناً
وكيف تطيب الحياة لقوم	تسد عليهم دروبُ المنى
بلادهم 'عرضة للضياع	وأمتهم 'عرضة للقنا
يريد اليهود بأن يصلبوا	وتأبى فلسطين أن 'تذغنا
وتأبى المروءة في أهلها	وتأبى السيوف وتأبى القنا
أرضُ الحيال وآياتُه	وذاتُ الجلال وذاتُ السنا

نصير لغوغائهم مسرحاً	وتعدو لشذاذهم مسكناً !
فقل لليهود وأشبايعهم	لقد خدعتكم بروق المنى
ألا ليت (بلفور) أعطاكم	بلاداً له لا بلاداً لنا
فلئذ لن أرحب من قدسنا	وانتم أحب إلى لنسنا
فلبست فلسطين أرضاً مشاعاً	فتعطي لمن شاء أن يسكننا
فإن تطلبوها بسمر القنا	نردكم بطوال القنا
ففي العربي صفات الأنام	سوى أن يخاف وأن يحبنا
وإن تحبوا بلبننا بالحيداع	فلن تحذعوا رجلاً مؤمناً
وإن تهجروها فذلك أولى	فإن فلسطين ملك لنا
وكانت لأجدادنا قبلنا	وتبقى لأحفادنا بعدنا
وإن لكم بسواها غنى	وليس لنا بسواها غنى
فلا نصبوها لكم موطناً	فلم تك يوماً لكم موطناً

٣- المأساة الفلسطينية نفخت في الأدب المعاصر روح التمرد والانطلاق والثورة

كانت النكبة في فلسطين نقطة الانعطاف الكبرى في بقطة العرب الحديثة ، فقد أيقظت المأساة أممنا العربية على الخطر ، وأظهرتها على حقيقة صارخة وهي أن الذين خاضوا معركة النكبة لم يكونوا يحسون إحساساً كافياً بالولاء للأرض العربية والوطن العربي وكرامة الأمة العربية ، فكانوا الأدوات المسخرة لزعيم أممهم بلايينها أمام حفنة من شذاذ الآفاق لا يبلغون المليوث ، وجعلوا من الحرب الفلسطينية (مهزلة عربية) كما يسميها الشاعر الفلسطيني محمود الحوت ، ومرغوا بحجبانهم تاريخ العرب الحديث ، وجللوه بالعار والذل ، وقد نفخت هذه الحقيقة روح التمرد والثورة في أعماق جيل النكبة ، وعكس الأدب المعاصر هذه الروح المتردة النائرة المنطلقة ، فتدفقت النقة في شعر المأساة نوح كالنار ، وها هي ذي تلتب في شعر يوسف الخطيب :

أنا مشعل أنا منارج جبّار
سأمدّ في الآفاق ألسنة اللظى
ولأحرقنّ الليل حتى تنجلي
للميتين دموعهم وجراحهم
ولسوف أغسل جهنم حتى توى
أنا للحياة وإن أظلم مشرداً
ومشيئتي قد رُت على أقدامه
لو شئت جمعت النجوم مشاعلاً
وذروت في القطبين أرياح الردى
أنا مجرم أنا حاقد ، أنا ممي
لا الريح تشمّدي ولا الإعصار
حجراً لها في الحافين أوار
أسدافه فتوقّدي يا نار
ولجذوفي ساحّ الوغى والشار
مثل الضحى ويذوب عنها العار
أقسمت لا أرض ولا أخنار
تسبح الأيام والأقذار
ودفقت منها الموت حين أنار
فالأرض من بعدى لظى ودمار
حتى تعود إلى ذوبها الدار

وفي الشعر المعاصر حملات على الذين قادوا معركة النكبة إلى الهزيمة ، وفي
طليعتهم زمرة الملوك والحكام والرؤساء ، ولقد كانت ثورة شعراء المأساة على
خياناتهم شعواء حقاً ، وإليك نماذج منها :

يقول أبو سلمى وهو يسبق هنا سائر شعراء النكبة :

يا رفاق الدعر هل تردكم
زعماء دنسوا فارمجتكم
وجيوش غفر الله لها
دول تحبها شرقية
في الورى غدر عدو أم محب
وملوك شردوكم دون ذنب
سأمت أوطانكم من غير حرب
وإذا أمعنت فالجأكم غربي

ويقول عيسى الناعوري :

هم أسلموك إلى العدو فرتغوا
بل مرتغوا تاريخ يعرب كلته
زمرّ تعيش على الحياة مثاماً
بالعبار كلّ كرامة وأباة
بذلة لا تنتهي نكراء
عاش البعوض على خبيث الماء

ويقول عمر أبو ريشة :

أهني ! كم غصة دامية	خنقت بحسوى علاك في هي
كيف أغضيت على الذل ولم	تنفضي عنك غبار النهم
فيم أقدمت وأججت ولم	يشف النار ولم تنقعي
اسمي نوح الخرافي وأطري	وانظري دمع اليتامى وابسمي
واتركي الجرحى نداري جرحها	وامنعي عنها كرويم البسم
ودعي القادة في أهوائها	تنفالي في خيس المغنم
ربّ د وامتصاه انطلقت	هل أقواه البسات الشّم
لامت أصابعهم لكنّها	لم تلامس نخوة المعتصم

ومن وراء البحار ، من المهجر يقذف الياس فرحات هذا الحجر ليرجم
به أصحاب الجلالة والسمو :

أشباب بعرب قم فزغن هنا	ناقى بملء صدورنا الميخنا
ثم نفع عاراً تحت وطأته	كادت تمس جبا هذا الدمنا
لولا رجاء النازحين عن الـ	أوطان فيك لا تكروا الوطننا
وإذا لقيت ذوي الجلالة من	سادتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكل ذي لقب	خاور كصاحبه قليل غنى
فاهزأ بألقاب لهم سميت	وكرامة هزلت أسيّ وضى
ديست بأقدام اليهود قيا	شمّ الأثوف استنشقوا الدرننا
أهمدّمين بسوء دخلتهم	يوم الكريهة ماصلاح بني
دقوا وغنّسوا في مآتمنا	لكم البداءة والختام لنا

وفي الشعر المعاصر حملات ضاربة على الاستعمار والمستعمرين ، لأنّ

الاستعمار كما قدمنا من أهم عوامل المأساة ، ولهذا يقول هاديون هاشم رشيد :

لولا خِداع الانكليز وغدرهم	ماعات في أرض الاسود كلاب
والغرب ! بالغرب إن قدومه	نحو البلاد مصيبة وخراب
هو أخطبوط فاجر مستعبر	في كل ناحية له أذنان

ومن مظاهر التبرد والثورة في الشعر المعاصر انصرافه إلى الشعب والايان به وبإمكاناته وعقده الآمال للخلاص على يديه . يقول كمال ناصر :

أنا الشعب فلتسمعي يا ذرا	نشيدي يدوي بسمع الفضاء
أمدّ جناحي عبر الجراح	فمن كبرياء إلى كبرياء
أنا الشعب يا حفنة المرجفين	نداء الخلود وسرّ البقاء
على مقاليّ مصير الوجود	وفي وجنتي مصير القضاء

وتدفع الثورة أحد شعراء النكبة - خليل زقطان - إلى المبالغة والمغالاة فيؤله الشعب :

فليقرأوا فوق الجبا	• الفرّ فلسفة العصاة
صوراً من الإصرار ثم	لمن أتما الشعب الاله

٤ - مأساة فلسطين دفعت الشعراء المعاصرين إلى التطوّر والتجديد والحياة

يعاني الشعر العربي اليوم ثورة جامحة على التقاليد الشعرية القديمة في الشكل والمضمون ، وبواجهة تجارب كثيرة لوضع تقاليد جديدة للشعر العربي ، وهكذا نجد في الشعر المعاصر مشكلة جديدة هي مشكلة الشعر الجديد ، أو الشعر الحر ، كما يسمونه وهو يقوم على وحدة التفعيلة في القصيدة ، وتنوع عدد التفعيلات في كل بيت تنوعاً يوافق انسياب المعاني ، وتوزيع الموجات العاطفية

توزيعاً موسيقياً ملائماً، واعتبار القافية عنصراً عفوياً، غير ملتزم ولا متعمد^(١)، هذا من حيث الصياغة الشكلية، أما من حيث المضمون: فالشعر الجديد يُمدّد التجربة ويستطّها، ويُعنى بإيراد الجزئيات الصغيرة التي تتجمع ظلالها فتزيد التعبير الشعري عن التجربة عمقاً ووضوحاً وأصالة؛ ثم إن الشعر الجديد يسعى إلى أن يكون صادقاً في تمثيل الجانب الانفعالي من الحياة، وإلى أن يعبر عن وقع الوجود وأحداثه على الوجدان دوناً طلاءً أو زيف.

إن الشعر الجديد انقلاب ثوري على شعرنا التقليدي، ولكي يتضح التعريف الذي قدّمته أضرب لكم مثلاً من الشعر الحر الجديد الذي نظمته مأساة فلسطين بلسان الشاعر نزار القباني، وهي قصيدة جميلة سماها الشاعر «قصّة راشيل شوارزبرغ» وقدّمها للأجيال العربية المقبلة وأعان فيها الثوره على الجيل الذي أسهم في ضياع فلسطين، وليت شاعرنا نزاراً ينفق طاقته الشعرية دائماً في مثل هذه الموضوعات:

أكتب للصغار

للعرب الصغار حيث يوجدون

لهم على اختلاف اللون والأعمار والعيون

أكتب للذين سوف يولدون

لهم أنا أكتب للصغار

لأعين يركض في أحداقها النهار

أكتب باختصار

قصّة إرهابية مجتده

يدعوها «راشيل»

قضت سنين الحرب في زوّانة منفردة

(١) - انظر «في شعر النكبة»، ص ٨٩ - ٩٣

كالجرذ .. في زلزلة منفردة*
 شتتها الألمان في براغ*
 كان أبوها قدراً من أقدر اليهود*
 يزور النقود ،
 وهي تدبر منزلاً للفحش في براغ*
 يقصده الجنود ..
 وآت الحرب إلى ختام*
 وأعلن السلام*
 ووقع الكبار*
 أربعة يلتقبون أنفسهم كبار*
 صك وجود الأمة المتحدة*
 ... وأجرت من شرق أوروبا مع الصباح*
 سفينة تلغنها الرياح*
 وجهتها الجنوب*
 تغص بالجرذان والطاعون واليهود
 كانوا خليطاً من سقاطة الشعوب
 من غرب بولندا
 من النمسا
 من استبول .. من براغ*
 من آخر الأرض .. من السعير*
 جاءوا إلى موطننا الصغير
 موطننا المسالم الصغير
 فلفظوا ترابنا
 وأعدموا نساءنا

ويتموا أطفالنا
ولا تزال الأمم المتحدة
ولم يزل ميثاقها الخطير
يبعث في حرية الشعوب
وحق تقرير المصير
والمثل المجردة
فليذكر الصغار
العرب الصغار حيث يوجدون
من ولدوا منهم ومن سيولدون
قصة إرهابية بجنده
يدعونها « راشيل »
حلت محل « أمي المنددة »
في أرض بيتاوتنا الخضراء في الخليل
أمي أنا الذبيحة المستشهد
وليذكر الصغار
حكاية الأرض التي ضيعها الكبار
والأمم المتحدة

* * *

أكتب للصغار
قصة بئر السبع والطورون والجليل
وأخني القليل
هناك ، في بيتارة الليسبون ، أخني القليل
هل يذكر الليسبون في الرملة ، في اللد ، وفي الخليل
أخني التي علقها اليهود في الأصل

من شعرها الطويل
أخوتي أنا نوار
أخوتي أنا المشيكة الإزار
على رُبا الرملة والجليل
أخوتي التي مازال جرحها الطليل
مازال بانتظار
نهار قار واحد ، نهار قار
علي يد الصغار
جيل فدائي من الصغار
يعرف عن نوار
وشعرها الطويل
وقبرها الضائع في القفار
أكثر مما يعرف الكبار !

* * *

أكتب للصغار
أكتب عن يافا وعن مرفئها القديم
عن بقعة غالية الحجارة
يضيء برتقالها كخيمة النجوم
تضم قبر والدي وإخوتي الصغار
هل تعرفون والدي وإخوتي الصغار
إذ كان في يافا لنا حديقة ودار
يلقشها النعيم ،
وكان والدي الرحيم
مزادعاً شيخاً يحب الشمس والتراب

والله والزيتون والكروم
 كأن يحب زوجته
 وبيته
 والشجر المثلث بالنجوم
 . . . وجاء أغراب مع الغياب
 من شرق أوربا . . . ومن غياهب السجون
 جاءوا كفوج جائع من الذئاب
 فأنلفوا الثمار
 وكسروا العصون
 وأشعلوا التيران في بيادر النجوم
 والجنة الأطفال في وجوم
 والليل في وجوم
 واشتعلت في والدي كرامة التراب
 فصاح فيهم : اذهبوا إلى الجحيم
 لن تسلبوا أرضي بإسالة الكلاب
 . . . ومات والدي الرحيم
 بطلقة سددها كلب من الكلاب
 عليه ، مات والدي العظيم
 في الموطن العظيم
 وكفه مشدودة شداً إلى التراب
 فليذكر الصغار
 العرب الضغار حيث يوجدون
 من ولدوا منهم ومن سيولدون
 ماقية التراب

لأن في انتظارهم

معركة التراب . . . !

هذا نموذج من الشعر الجديد ، نموذج كامل لم أ حذف منه شيئاً ، لكني تلمسوا فيه سعة دائرة التجربة وتبسيطها والعناية بالجزئيات التي تتلاقى فتزيد التجربة عمقاً ووضوحاً ، والشعر الجديد يلائم اليوم صفحتنا ومجالاتنا ، وبهم النقاد بدراسته ورصد أسبابه ، فيقول بعضهم إنه امتداد للعرشة العنيفة التي هزّت كيان الشعر العالمي كله من جراء تطور المفاهيم ، وانحرف الشعر العربي المعاصر في هذا التيار ! والحق أن وراء الشعر الجديد دوافع كثيرة أخرى معقدة ، منها تلك الشعوبية الماكرة المقدمة بستان التجديد والتحرر والانطلاق ، ونحت قناعها حقد على التقاليد العربية آية كانت ، واندفاع ضار نحو تحطيم كل عقيدة ، ومن الدوافع أيضاً غرور بعض الناشئين من الشعراء ، يُعجزهم إقامة الوزن واختراع القافية ، فيختصرون الطريق ، ويشمردون على القيود ، ويصيرون إلى الشعر الحر ، وهؤلاء المراهقون من الشعراء بحاجة إلى عصا ناقد صارم ، يعلمهم أن وراء كل أثر فني ناجح مرهبة صامتة عاملة ، وتضحية لاحد لها من سهر وعرق ودمع وصبر !

غير أن أهم دافع — في اعتقادي — لهذا الانقلاب الثوري في الشعر المعاصر ينبع من مأساة فلسطين ، ذلك أن الهزيمة في فلسطين كانت صدمة عنيفة طاش في أعقابها العقل العربي ، فاختلت موازين القيم أمام عينيه ، وتفجرت في اللا شعور نعمة مسعورة تستهين بكل القيم وتتجداها ، فالثورة على التقاليد الشعرية صورة تلقى النفسى والشك والحيرة والرغبة في التغيير والاندفاع نحو التحرر ، والاشمئزاز من الماضي والحاضر . . صورة للهزة الرهيبة التي كادت تحطم الضمير العربي في أعقاب الهزيمة !

إن الشعر الجديد أثر من آثار مأساة فلسطين في الشعر المعاصر ، وهو تجربة

لاخير منها ، واذا قادها الوعي الفني والقومي والانساني بعمق وموهبة واحالة
أعطت نماذج ناجحة ، وكان لها أثرها البعيد في مستقبل الصباغة الشعرية وفي
تطوير الشعر العربي الحديث كله . .

لقد خرج الشعر الجديد من أعقاب معركة فلسطين ليخوض بنفسه معركة
النقد للحكم على صلاحه ، ومعركة النقد قائمة ابداً بين المحافظين والمجددين - وهي
استمرار طبيعي للمعركة النقدية القديمة التي لاحياة للأدب بدونها - وعلى رأس
المحافظين الاستاذ عباس محمود العقاد الذي يرفض أن يسمى الشعر الجديد شعراً ،
والى جانبه الشاعر المحافظ عزيز أباظة الذي يسمي الشعر الجديد «هذيان الحمومين» !
وأما المجددون فيعلنون أن الشعر الجديد هو «ثورة تجعل من عصرنا عصرًا
شعرياً ذهبياً» كما يقول الشاعر المجدد صلاح الدين عبدالصبور ، ويدعم هؤلاء
نقاد متفائلون في مقدمتهم الدكتور محمد مندور الذي يدعو الناقمين المتشائمين
إلى أن يبذلوا محاولات مختصة لفهم الشعر الجديد واستنباط مواطن الجمال فيه .

هـ - مأساة فلسطين غلبت على الشعر المعاصر الاتجاه الالتزامي الهادف

في اعتقادي أيضاً أن مأساة فلسطين هي أكبر عامل في إثارة الدعوة إلى
الالتزام في الأدب في العالم العربي ، وفي تغليب الاتجاه الهادف على الشعر المعاصر ،
وذلك لسببين :

أولهما أن مأساة فلسطين قدمت للشعراء مادة واقعية غنية ، وشغلت بويلاتها
وأهوالها الضمير العربي ، فانطلقت الصرخة من أعماقه داعية إلى مطاوعة الأدب
الحديث لواقع الأمة العربية المرير ، ليعيش الأدب تجربة الأمة ويكون
الاديب صاحب رسالة بدلاً من مضمونه الشعري أو النثري منها ، لا من ذاكرته
ولا من خياله ، فيربط بذلك بين إنتاجه والحياة الاجتماعية التي يحياها .

وثانيهما أن مأساة فلسطين ودور الاستعمار العربي فيها دفعت أمتنا العربية

إلى التحرر من سيطرة الغرب والعمل على التخلص من احتكاره لنا في الميادين كلها ، ومنها ميدان الثقافة ، وهكذا تكون مأساة فلسطين هي التي دفعتنا إلى أن نفتتح كوة على ثقافة العالم الاشتراكي ، وهي ثقافة تقول بالتزام الفنان بخدمة مجتمعه ، وتشكر عليه الحق في الانعزال و (البرجعاجية) ، ومن هذه الكوة الجديدة هبت علينا مفاهيم لاتعرفها الثقافة الغربية التي كانت مهيمنة علينا وكنا نسير في ركابها ، فثقافة الغرب تنزع بوجه عام إلى منح الفنان نهاية الاستقلال الفردي ، وقد يصل الأمر ببعض مدارسها إلى تحرير الأديب من كل مسئولية اجتماعية ..

ومها يمكن فإن الدعوة إلى الالتزام أثبتت في العالم العربي في أعقاب الهزيمة ، وشغلت — وماتزال — الأوساط الفكرية فيه ، والنقاد أيضاً فريقان أمامها : فريق مؤيد يبحث الكتاب والشعراء على اقتراض مادتهم من صميم الواقع العربي ، ويطالبهم بأن يلتزموا في معالجتها برأي محدد في شجاعة وإصرار ، وفريق معارض يسخر من الدعوة إلى الالتزام والأدب الهادف ويسميه الأدب الهاتف ، ويعني أن الأديب الملتزم آلة مطواع يردد كالبيغاء ما يراود منه ، وبذلك تضيع حرية الأديب ، ويأتي أدبه زائفاً مكذوباً به على الحياة — كما يقول محمود تسيور — لأنه وليد الغرض والإملاء والإلزام .

والحق أن أمتنا العربية تعيش منذ الكارثة تجربة قاسية ، وهي ماتزال عاكفة على مأساتها ، تدرس أخطأها وت رسم لنفسها سبيل الخلاص لوضع نهاية مشرفة للنكبة ، والأدب مدعو إلى أن يسهم وبشارك فيؤدي واجبه في تعبئة الفكر والوجدان الشعبي ويساعد على نشر الوعي وتكامله ويؤكد شعراً ونثراً هذه المفاهيم التي تقرب الأمة العربية من نهاية المأساة :

أولاً : لانهاية للمأساة بدون أن ينتظم العرب في دولة واحدة ، وتصبح

الشخصية العربية موحدة غير مجزأة إلى مصري وسوري وفلسطيني وعراقي
وسوداني وأردني وحجازي ويمني ولبناني وتونسي ومراكشي وجزائري الخ...

ثانياً : لانهاية للمأساة بدون إقامة مجتمع عربي متماسك قادر على حماية نفسه
من الاستعمار والحياقات الداخلية .

ثالثاً : لانهاية للمأساة بدون اعتمادنا على أنفسنا وإيماننا بسياسة الجياد إيماناً
قاطعاً ، فقد خذلنا المعسكران معاً وأقاما دولة إسرائيل على جثتنا .

رابعاً : لانهاية للمأساة بدون تعميق روح النضال في الجماهير العربية
وتعبئتها عسكرياً وخلقياً وروحياً وجدانياً لمعركتنا الفاصلة مع إسرائيل .

هذه ينابيع الالتزام في الأدب ، وهي مسئولية على الأديب الشاعر أو
النثر ألا يهرب منها لينطوي على نفسه ويقصر أدبه على ذاته ، وإن للأجيال
العربية القادمة أن تحدد جريمة الأديب العربي الذي يبعثر اليوم طاقته الفنية
في موضوعات تعارض المفاهيم السابقة ، فتطيل عمر المأساة وتبعد الفجر المرتقب !
ومن هنا تظهر مسئولية عدد من الأدباء والشعراء العرب الذين يتاجرونت
بالانحلال وينفثون سمومهم الجنسية دون وازع ، ويسكبون في أعصاب الشباب
العربي نار الشهوة بقصائدهم المفضوحة العارية ، وقصصهم المكشوفة . ولا ريب
في أن إقبال الشباب العربي على قراءة أدب التيسع والشهوة دليل على وهم
خلق في صفوفه ، وضجور تخيف للاحساس بالخطر الجاثم على حدودنا ، وتنافس
للمأساة التي لا تزال تغيب أمتنا العربية في ليلاها المظلم !

* * *

أيتها السادة

هذه هي أهم آثار المأساة في الشعر المعاصر - كما تبدو لي - ويمكننا أن

نلمس نقاطاً أخرى من تأثير المأساة الفلسطينية في الشعر العربي المعاصر إذا درسنا القصة الشعرية في شعر النكبة ، ونجد لها غاذج كثيرة رائعة حقاً في دواوين إبراهيم طوقان وأخته فدوى وسامي الحضراء الجيوسي ويوسف الخطيب وأمين شتار وهارون هاشم رشيد وغيرهم ؛ ونلمس تأثيراً آخر للمأساة فلسطين في كثرة الشعر الذي يُغنى به ، فالمدائح يردد كل أيام أغنيات رائعة نظمها المأساة بلسان أبي سلمى وحسن البجيراني وهارون هاشم رشيد وأخيه علي هاشم رشيد وسليمان العيسى ويوسف الخطيب وغيرهم ! ولو كان الوقت يتسع لأوردت غاذج من رائع قصص المأساة الشعرية وأغانيها ، ولكنني أكتفي بالقصة الشعرية التي قدمها لنا قبل قليل نزار القباني (قصة راسيل شوارزبرغ) وأما الأغنيات فالمدائح في كل بيت كفيلاً بتقديم الكثير لمن شاء منها ..

* * *

أيها السادة :

وأقدم لكم الآن غاذج من أجمل الشعر المعاصر ، تحكي لكم مشاهد متنوعة من مأساة فلسطين ، وتبرز لأعيننا جملة الآثار التي تركتها النكبة في الشعر العربي المعاصر :

١ - الفدائي و الشهييد

صورتان من صور المأساة قبل التقسيم ، رسمتها ريشة شاعر فلسطين الكبير إبراهيم طوقان ، وغايته أن ينفخ في عرب فلسطين روح المقاومة والفداء والتضحية ، فالفدائي :

صامت لو تكلمها	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صيته	خلق الخرم أبكها

وأخو الحزم لم تزل	يسد تسبق الفيا
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظالم
وبلاداً أحبها	ركنها قد تهدما
وخصوماً يبغهم	ضجت الأرض والسما

هو بالباب واقف	والردي منه خائف
فاهدني بأعراف	خجلاً من شجاعته !

حتى إذا سقط الفدائي شهيداً ، ترك في أمته شعلة لا تنطفئ :

عسى الخطب فابنم	وطعن الهول فاقنم
رابط الجأش والنهى	ثابت القلب والقدم
نفسه طوع هممة	وجنت دونها المم
وفي من عنصر الفدا	ومن جواهر الكرم
لم يشيع بدمعة	من حبيب ولا سكن
ربما أدرج القوا	ب سلباً من الكفن
لا تقل أين جسده	واسمه في فم الزمن
أرسل النور في العيو	ن فما تعرف الوسن

٢ — الغراب الغازي

صورة رمزية يكشف فيها الشاعر المهجري جورج صيدح تجربة قاسية من تجارب المأساة ، يوم راحت الجيوش العربية المغرورة بها تخوض معركة القدر بدون سلاح ! ولقد تناول الشاعر التجربة من زاوية فنية ووجدانية تتمثل في غراب يقتحم على الشاعر غرقته في مجنون ، فيحيل له أن الغراب الغازي قادم من إسرائيل :

تطيرت من ناعب في الصباح
مغير يمزق شمل الرياح
غمامة غير تجاه البطاح
تقزّز منه عبوث الاقحاح
تسرب في غرقي واستراح
كأنني اعتزلت حياة المراح
خلا الجو من هبات الصداح
أنابى جوار الغراب الوقاح
ومن أنبا الطير أن اجتياح

وأن انتسابي إلى يعرب

بجلل مأواي للأجني

وأنى أهده بالقنا بكفي، وكفى خلعت من سلاح!

أضيف القنا انت بيتي المباح
وزادي - أعينك منه - جراح
شهرت عليك لساني الصراح
سأنتك بعد الغدو الزواح
وماضى لو زرت (تل) السفاح
هنالك سربك يجني الرياح
كرهتك خيفاً دجى الوشاح
إذا وحفتك القوافي القضاح
تسيء وأنت طليق السراح

أحلت عليك النسر الغضاب

ولكن . . حسدك يابن التراب

ترود الأتالي وأبقى هنا فعندك ما ليس عندي سلاح" !

٣ - العزيب المهاجر

صورة تفيض بالحياة والحنين إلى الوطن المغصوب ، فقد كان الشاعر يوسف الخطيب لاجئاً في دمشق عندما رأى عندليباً مقبلاً من الجنوب ، مهاجراً مثله من فلسطين :

أتراك مثلي يارفيق غرّ في الزمن
عبرَ المهالك والليالي السود والحنن
لكأنّ في عينيك بعض الملح من وطني

وأكاد ألمح في وجوهك لوت مأساتي
جرحي ، وملحمي ، وتشريدي وآهاتي

بيّ لهفة " باصاحي مشبوبة النار
عل بعض أخبار تحدّثها ، وأمرار
للظالمين على مناه الوحشة العاري
كيف الحقول تركتها في عرس آذار
ومتى لويت جناحك الزاهي عن الدار
عجباً ! ذراك أنبتنا من غير تذكّار !

لوقشة " تما يرف بييد البلد
خيأتها بين الجناح وخفقة الصب
لو وملئات من المثلث ، أو ربّاً صفد

لو عثبة بيدٍ ، ومزقة سوسن يـيدٍ
أبن الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
أم جئت مثلي بالحنين وسوزة الكمد

ماذا رحيلك أيها المتشرد الباكي
عن أرض غابات الخيال وفوحها الزاكي
أم أنت "مرج الزهر أصبح قفر" أشواك
وتلوت أنهارها بنجيب سفاك
داري ، وفي عيني والشفين نجواك
لا كنت نسل عروبي إن كنت أناك !

٤ — بعد عشر سنين

صرخة رائعة للشاعر أبي سلمى يذكر فيها بدماء فلسطين الشهيدة عندما
لاح أول شعاع من شمس الوحدة العربية بقيام الجمهورية العربية المتحدة :

بارفاتي جبل النار دعانا	الهوى هذا الذي هب هوانا
والنسبات التي مرت بنا	حلت من أرض حطين شذانا
وعلى كل طريق عبق	من صبانا وشعاع من دمانا
وإذا ما لفظت أهلي الربا	هتفت من خلل الدمع ربانا
أي سفح لم يسر فيه لظى	من فلسطين ولم يعرف سُرانا
أي شعب خففت أعلامه	حرّة إلا على دامي خطانا
باسم أطفال بلادي زحفوا	في الدروب الخمر ذلاً وهوانا
بالضحايا كتبوا تاريخنا	بالحيام السود تبكيهم زمانا

باسمهم في طرق البؤس حزاني	باسم أهلي في بقايا وطني
شاهداً قد صبَّ الظلم عياناً	باسمهم في كل أرض مكثوا
ودموعاً وسعيواً ودخاناً	واسمهم يهدر في شعري دماً
في غدٍ إلا على طهر تروانا	باسمهم نقسم ألا نلتقي
كل يوم يسبح الدهر ندانا	يا فلسطين مضت عشرٌ وفي
عرباً قلباً ووجهاً ولساناً	وأنتينا والظى بحرُفنا
تلثيم التوب المفدَى شفتانا	بأنحباي مضت عشرٌ ولم
بين أهلينا ولم يبق سوانا	وشظابانا اللواقي وحسدت
لم يبلُح في الوحدة الكبرى حمانا	لن تتم الوحدة الكبرى إذا

* * *

أجها السادة

بهذه الصفحات المختارة من الديوان الديموري الضخم الذي منحه مأساة فلسطين للأدب المعاصر نصل الى نهاية الحديث ، غير أن ملحمة الدم في فلسطين تظل بلا نهاية ، فالدم العربي المظلوم المطول فوق تربة فلسطين يزار ليل نهار يدعو العرب إلى الثأر ليخطوا خاتمة مشرقة لمأساتهم القومية العظيمة

إن ليل المأساة ينتظر الفجر ، وإنه لقريب ، وقد لاحت تباشيره بقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ولئن كان (ابن غوريون) يعترف في (الكنيست) بأن اليهود اعتمدوا في إقامة إسرائيل على الجيش ٢٥٠ في المائة و ٩٧,٥ في المائة على السياسة ، فإن الجمهورية العربية المتحدة تلك اليوم - بحمد الله - الجيش العربي العظيم الذي يحمي جيش إسرائيل ، كما تملك القائد السياسي الذي يلتف بدهائه كل باطل للسياسة الإسرائيلية فيشله ، ويوم يقود هذا القائد الناصر المظفر جيش العرب إلى نلال حطين ويقذف بالغزاة المعتدين إلى البحر سيعتني له الشعر العربي المعاصر

أجل أغاني المأساة وأروعها ، وتتحقق بذلك نبوءة الشاعر القديم ابن مفلح :
 المسجد الأقصى له عادة " سارت فصارت مثلاً ميثراً
 إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له فاصراً
 فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخراً^(١)

والسلام عليكم

أهم مصادر البحث

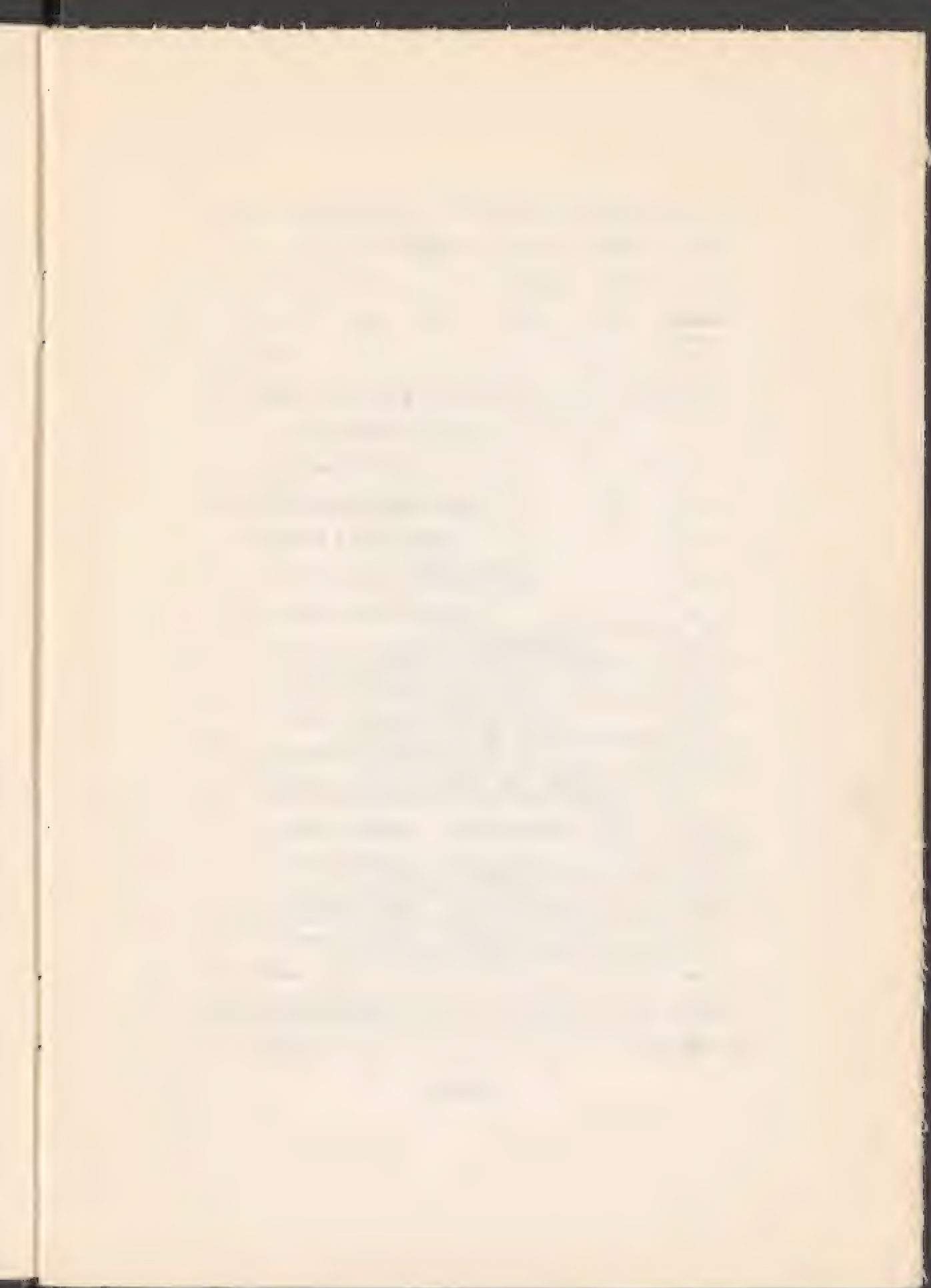
- ١ - في شعر النكبة : للدكتور صالح الاشر
- ٢ - أدب الحروب الصليبية : للدكتور عبد اللطيف حمزة
- ٣ - النكبة والبناء : للدكتور وليد قحايي
- ٤ - طبيعة الفن ومسئولية الفنان : للدكتور محمد النويهي
- ٥ - الأدب المخادف : للأستاذ محمود تيمور
- ٦ - مقدمة ابن خلدون
- ٧ - تاريخ ابن الأثير
- ٨ - دواوين الشعراء الذين ذكروا أسماءهم في البحث
- ٩ - مجلات : الثقافة العربية (عدد ممتاز عن فلسطين) والثقافة (الدمشقية)
 والآداب والأديب والعالم الإسلامي ومجلة العربي الخ ...

(١) - الناصر الأول هو صلاح الدين الأيوبي ، والناصر الآخر هو داود صاحب الكرك
 الملقب بالملك الناصر .

المفهرس

الصفحة

٣	١ - تمهيد
٥	٢ - مدخل : الأدب العربي وشعر النكبات
	- مأساة فلسطين الغزو الصليبي
	- أولى قصائد النكبة .
١٠	٣ - مأساة فلسطين والغزو الصهيوني
١٣	٤ - أثر المأساة في الشعر المعاصر
١٤	أ - قدمت للشعر المعاصر زادا لا ينفد
١٥	ب - أغنت العنصر العاطفي فيه
١٩	ج - نفخت فيه روح التمرد والانطلاق والثورة
٢٢	د - دفعته إلى التطور والتجديد والحياة
٢٩	هـ - غلبت عليه الاتجاه الالتزامي الهادف
٣١	و - القصة الشعرية والأغنية في المأساة
	٥ - نماذج مختارة من صور المأساة في الشعر المعاصر :
٣٢	أ - الفدائي والشهيد لبراهيم طوقان
٣٣	ب - الغراب الغازي لجورج صيدح
٣٥	ج - العندليب المهاجر ليوسف الخطيب
٣٦	د - بعد عشر سنين لأبي سلمى
٣٧	٦ - خاتمة
٣٨	٧ - أهم مصادر البحث
٣٩	٨ - الفهرس



وہابیہ

وہابیہ

وہابیہ

وہابیہ

للمؤلف

• في شعر النكبة

« بحث تخطيطي في اصداء نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر »

(مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠)

• أندلسيات شوقي

« بحث تطبيقي في أدب شوقي في المنفى وأثر الأندلس في شخصيته وفنه »

(مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩)

• أخبار البحري

لأبي بكر الصولي

« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »

(مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٨)

• إغتاب الكتاب

لأبي عبد الله بن الأبار

« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »

(مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - تحت الطبع)



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 01011 1485

PJ8190.P3 A84 1961

Ma'sat Fil

PJ
8190
.P3
A84
1961
c.1